محاضرة رقم: 08 سؤال الانطلاق

البحث هو مسار نحو معرفة أفضل لذلك، يجب على الباحث أن يختار بسرعة خيطًا رئيسيًا واضحًا قدر الإمكان حتى يتمكن من بدء عمله دون تأخير وتنظيمه بشكل متسق.

بعبارة أخرى، فإن أفضل طريقة لبدء عمل بحثي اجتماعي هي السعي إلى صياغة المشروع في شكل سؤال أولي. في البحث، يكمن سر النجاح غالبًا في اختيار السؤال الصحيح.

من خلال هذا السؤال، يحاول الباحث التعبير بأكبر قدر ممكن من الدقة عما يسعى إلى معرفته وتوضيحه وفهمه بشكل أفضل.

وفقًا لـ "غاستون باشلار"، " كل معرفة هي إجابة على سؤال. إذا لم يكن هناك سؤال مسبق، فلا يمكن أن تكون هناك معرفة علمية. لا شيء بديهي، لا شيء مسلّم به، كل شيء مبني". وهذا ما يؤكده "ميشيل بود" عندما قال: " لا يوجد بحث بدون تساؤل". وكثيرة هي العبارات والمقولات التي تبرز أهمية التساؤل وضرورته في أي مسعى علمي. ولعل أهم ما جاء في هذا الصدد مقولة "غاستون باشلار في إحدى نصوصه الإبستمولوجية: " ...في العلم الأسئلة أهم من الإجابات." وهذا أحد علماء الاجتماع (ماكس فيبر على ما نعتقد) يؤكد مدى أهمية السؤال والروح العلمية التي يبثها في أي عمل ضمن مقولة له مفادها " إذا أردت لعملك العلمي أن يعمّر طويلا فانهه بسؤال." وهو ما أصبح تقليدا لدى الكثير من ممارسي البحث العلمي.

ودفع أحد الكتاب إلى القول: "في العلم أو بالأحرى في البحث العلمي، سؤال البحث هو ما يطرح مشكلة ويكون موضوعا لبحث من شأنه أن ينتهي بنا إلى معارف جديدة **وأسئلة جديدة**". ويقارن أحدهم بين العلم والإيديولوجيا بالقول: "أنّ العلم يتساءل والإيديولوجيا تجيب".

وبالتالي، فإن السؤال الأولي يستخدم كدليل للبحث. وهو الوسيلة الأولى لتنفيذ أحد الأبعاد الأساسية للنهج العلمي وبناء الموضوع، أي التخلص من الأحكام المسبقة والمفاهيم المسبقة، وبالتالي من الحس السليم.

يسمح السؤال الأولي بتحديد مشكلة البحث الخاصة بدقة ورسم أبعادها وضبط حدودها.

يصبح الموضوع مشكلة بحثية عندما يتم صياغة سؤال أو أسئلة حول هذا الموضوع.

تتمثل إحدى طرق العمل على الأسئلة الأولية في سرد جميع الأسئلة التي تطرح نفسها. بعد ذلك، يجب فصل الأسئلة البسيطة (التي يمكن الإجابة عليها في الميدان أو في الكتب) عن الأسئلة المعقدة التي لا يوجد لها إجابة مرضية مسبقًا. وتوجد الأسئلة الأولية ضمن هذه الأسئلة المعقدة.

لذلك، غالبًا ما تتبادر إلى الذهن العديد من الأسئلة عند طرح موضوع ما: قم بتقييم الأهمية الاجتماعية لكل منها وقم بترتيبها حسب الأولوية لتوضيح معنى بحثك.

عندما تظهر السؤال الأولي من خلال طرح الأسئلة (غالبًا بعد العديد من الصياغات)، سيكون من المناسب اختبار جودته من حيث الوضوح والجدوى

معايير السؤال الأولي الجيد:

ترجمة مشروع بحثي إلى سؤال أولي لا يكون مفيدًا إلا إذا تمت صياغة هذا السؤال بشكل صحيح... وهذا ليس بالضرورة أمرًا سهلاً لأن السؤال الأولي الجيد يجب أن يستوفي عدة شروط.

بعبارة أخرى، لكي تؤدي السؤال الأولي وظيفته بشكل صحيح، يجب أن يتمتع بثلاث صفات على الأقل: الوضوح والجدوى والملاءمة.

– **صفات الوضوح** : تتعلق صفات الوضوح أساسًا بالدقة (طبيعة ما هو دقيق: غير غامض أو مربك)، والإيجاز (صفة ما هو موجز، أي ما يتم التعبير عنه بكلمات قليلة: ليس طويلًا جدًا)، ووضوح معنى المصطلح أو المفهوم الذي يحافظ على نفس المعنى في الاستخدامات المختلفة في السؤال الأولي.

للتأكد من أن السؤال الأولي لا يسبب أي لبس، صغه أو اطرحه على مجموعة صغيرة وتجنب التعليق عليه. اطلب من كل فرد أن يخبرك عن الطريقة التي فهم بها السؤال لمعرفة ما إذا كان المعنى الذي يعطيه كل فرد للسؤال متقاربًا. إذا كانت هناك اختلافات كبيرة، فيجب إعادة صياغة السؤال.

- **صفات الجدوى**: (طبيعة ما هو ممكن، قابل للتحقيق، ممكن). تتعلق صفات الجدوى بشكل أساسي بالطابع الواقعي وغير الواقعي للعمل الذي توحي به المسألة الأولية.

يتعلق الأمر بمعرفة ما إذا كنا نمتلك الموارد البشرية والمادية اللازمة لإجراء الدراسة. لإجراء بحث، نحتاج إلى عدد من الأمور، من بينها معارفنا ومواردنا: الوقت والمال.

– **صفات الملاءمة**: وهي الصفات التي تشير إلى علمية التساؤل وانشغاله بما هو قابل للتناول العلمي المنهجي بعيدا عن كل ما هو حكم قيمي أو أخلاقي أو جمالي أو غيبي. السؤال الحقيقي، هو السؤال الذي يفتح لنا آفاق البحث والاكتشاف ونحقق به أهداف العلم عموما من وصف وفهم وتفسير وغيرها من الأهداف المشروعة والداعية للبحث باعتباره فعلا معرفيا ينصب على ما هو موجود بالفعل وغير مدرك.

المراجع:

Gaston Bachelard. La formation de l’esprit scientifique. 3e éd, Paris, 1975,

Michel BEAUD. L’art de la thèse. Paris, La découverte, 2006, « Coll. Guides Grands Repères »,